من تراب الطريق (٤٦٨) حول الصداقة والصديق(*)

فى بغداد ، مدينة السلام ، أيام أن كان ذلك اسما على مسمى ، خط أبو حيان التوحيدى - أو سُمِع منه - أحاديث فى الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها - فيما قال - من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع ذكره ، ولكن امّحى أثره بين الناس !

وفئات الناس ليسوا بالنسبة للصداقة على شاكلة واحدة ، فأنت ترى الملوك جلّوا وترفعوا عن الصداقة ، ولذلك لم تصح لهم أحكامها ولا توفى حيالهم بعهودها . وإنما أمورهم جارية على توابع السلطان من القدرة والغلبة والهوى والمحبب والمبغض والاستحلاء والاستخفاف .. أما بطانتهم من الخدم والأولياء فعلى غاية الشبه بهم ، لانتسابهم إليهم وتعلقهم وولوعهم بهم .

أما أصحاب الضياع والإقطاعيات فليس لهم فى الصداقة عير ولا نفير ، وكذلك غلاة التجار المشغولون بالتربح الذى يسد بينهم وبين المروءة ويحجزهم عن السخاء والكرم . وربما خلصت الصداقة لأصحاب الدين والورع - على قلتهم .. أما الكتاب وأهل العلم فلا تصفو لهم صداقة إلاّ إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتمارى والخصومات .. عند ذلك ربما تصح لهم الصداقة ويظهر منهم الوفاء . وذلك بدوره قليل . أما أصحاب الجنوح وغواة الغش والتطفيف فى معاملاتهم فإنهم فى اضطراب شديد بين الناس ،

(*) المال ١٤/ ٧/ ٢٠١٠ .

لا محاسن لهم تذكر ، ولا مساعٍ حميدة تروى ، ولذلك قيل عنهم إنهم همج ورعاع وأوباش وأنذال وغوغاء ، وما يجرى هذا المجرى من النعوت التى تعبر عن خسة النفس ولؤم الطبع !

من تجاربه المرة ، يسارع التوحيدى فيقول إنه ينبغى قبل كل شىء أن نثق بأنه لا صديق ولا من يشبه الصديق ، حتى رأى البعض أن الانشغال بهم تضييع للحياة ، وأحيانا ما يورث اليأس ويجرّع الغيظ والأسى ، حتى قال بعضهم : لا خير فى مخالطة الناس ، ومن الوهم الثقة بهم والاعتماد عليهم .. وكثرت فى ذلك النوادر والأشعار .

وقيل : إن الوحدة خيرٌ من جليس السوء ، وأن العقل والحكمة سلعة نادرة ، حتى قيل : عدو عاقل خيرٌ من صديق جاهل .. وفى هذا المعنى قال الشاعر :

عدوك ذو العقل أبقى عليك من الصاحب الجاهل الأخرق

وقيل لأحد الأعراب : من أكرم الناس عشرة ؟

فقال : مْنَ إن قَرُب مَنَح ، وإن بَعُدَ مدَحَ ، وإن ظُلم صفح ، وإن ضُويق سمح ، فمن ظفر به أفلح ونجح .

وكتب رجل إلى صديقٍ له يقول : «أما بعد ، فإن كان إخوان الثقة كثيرين فأنت أولهم ، وإن كانوا قليلين فأنت أوثقهم ، وإن كانوا واحدًا فأنت هو » .

لن تصفو صداقة إلاَّ إذا صاحبها الإسماح ، والإغضاء عن مساوئ وهنات الأصدقاء ، والعاقل يغضى عن هذه المساوئ بدلًا من أن يعيش بلا صديق ! يقول الشاعر :

وأغمض للصديق عن المساوى مخافة أن تعيش بلا صديق !

الحياة بغير صديق ، خاوية مقفرة مجدبة .

روى التوحيدى ما قاله العتابى لصاحبٍ له : «ما أحوجك إلى أخٍ كريم الأخوة ، كامل المروءة ، إذا غبت خلفك ، وإذا حضرت أعانك ، وإذا بكّرت عرفك ، وإذا جفوت لاطفك ، وإذا سبقت كافأك ، وإذا لقى صديقك استزاده لك ، وإن لقى عدوك كف عنك شره ، وإذا رأيته ابتهجت ، وإذا ناجيته استرحت » .

قيل للخليل بن أحمد : استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو . قال : نعم ، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه !

من الناس من يستأسد على صديقه ؛ لأنه يأخذه بمنطق الضمان ويثق فى دوام مودته ، على حين يلين لعدوه لأنه يخشى بأسه ، قال الشاعر عبدالله بن قيس الرقيات .

يستأسدون على الصديق ، وللعدو ثعالب !

وقال فيلسوف : من عاشر الإخوان بالمكر ، كافأوه بالغدر .

سئل أبو الدرداء عما يفعل لمن أساء إليه ، فقال للسائل : «عظ أخاك وكن له ، ولا تشمت فيه حاسدا ولا عدوا فتكون مثله . غدا يأتى الموت . فيكفيك فقده ، فكيف تبكيه بعد الموت وفى الحياة ما أديت حقه ؟!» قال السائل لأبى الدرداء : أفلا تكرهه وقد أساء إليك ؟! قال : «إنما أكره عمله ، فإذا تركه فهو أخى » .

يُروى أن الأصمعى عَرَّضَ برجل كان حاضرا فأنشد :

صديقك لا يثنى عليك بطائلٍ فماذا ترى فيك العدو يقول ؟

فقال الرجل :

وحسْبك من لؤمٍ وخُبثِ سجيةٍ بأنك عن عيب الصديق سؤول ؟

وقال شاعر .

يصافينى الكريم إذا التقينا ويُبغضنى اللئيم إذا رآنى

يريد أن يقول : إن الكريم يخلص الود فى اللقاء وفى الغيبة ، واللئيم لا يصبر على إخفاء ما بنفسه من بغضاء وكراهية ومقت .

وكان أبو جعفر المنصور يقول : «من أعطى إخوانه النَّصفة ، وعاشرهم بجميل العشرة ، قوى بهم عضده ، وزاد بهم جَلَدُه ، وبذلوا دونه المهج ، وخاضوا من أجله اللجج ! » .

وقال أبو بكر الصديق : «قَارب إخوانك فى خلائقهم تسلم من بوائقهم ، وترتع فى حدائقهم» ..

وقال بعض السلف : إياك وكره الإخوان ، فإنه لا يؤذيك إلاَّ من تعرف ! » .

وقال آخر : «إخوان الصدق خير مكاسب الدنيا ، هم زينة فى الرخاء وعُدَّة فى البلاء » .

*****